THE NATURE AND ESSENCE OF HUMAN IN THE QUR'AN

Abdelaziz Abbaci
Islamic Studies, UIN Syarif Hidayatullah
aziz313m@gmail.com

Abstract
This article discusses various concepts and views on defining the human being in the context of achieving perfection. These concepts include perspectives from various disciplines and intellectual traditions, such as philosophy, Sufism, psychology, and religion. From a philosophical standpoint, the ideal human is seen as an individual who achieves wisdom both theoretically and practically, by mastering their instincts and potentials. Sufism, on the other hand, emphasizes that human perfection lies in love and one's relationship with God. On another note, the concept of strength and weakness is addressed, where some views suggest that strength is the key to perfection, while others believe that perfection lies in self-awareness and love for others. From a religious perspective, human perfection can be achieved through a deep understanding of the self and a proper relationship with God. This means that this research highlights the importance of understanding the self as a first step in the journey towards true perfection, which ultimately is the awareness of absolute dependence on God.

Keywords: *Human Definition, Self-Development Theory, Philosophical Anthropology, Self-Understanding, Perfect Human.*

مستخلص البحث

يتناول هذا المقال مفاهيم وآراء مختلفة حول تعريف الإنسان في سياق تحقيق الكمال. تشمل هذه المفاهيم وجهات نظر من مختلف التخصصات والتقاليد الفكرية، مثل الفلسفة، والتصوف، وعلم النفس، والدين. من وجهة نظر الفلسفة، الإنسان المثالي هو الفرد الذي يبلغ الحكمة سواء على المستوى النظري أو العملي، من خلال السيطرة على غرائزه وإمكانياته. بينما يشدد التصوف على أن تحقيق كمال الإنسان يكمن في الحب وعلاقته بالله. من ناحية أخرى، يتم تناول مفهوم القوة والضعف، حيث تشير بعض الآراء إلى أن القوة هي مفتاح الكمال، بينما تعتقد آراء أخرى أن الكمال يكمن في الوعي بالذات والمحبة للآخرين. من منظور الدين، يمكن تحقيق كمال الإنسان من خلال فهم عميق للذات والعلاقة الصحيحة مع الله. يعني ذلك أن هذا البحث يسلط الضوء على أهمية فهم الذات كخطوة أولى في الرحلة نحو الكمال الحقيقي، الذي في نهاية المطاف هو الوعي بالاعتماد المطلق على الله.

الكلمات الاساسية: تعريف الإنسان، نظرية تطوير الذات، الأنثروبولوجيا الفلسفية، الوعي الذاتي، الإنسان المثالي.

مقدمة

إن معرفة الإنسان من أهم المعارف، حيث من دونها لا يمكن لنا أن نصل إلى حقيقة أي هدف في هذه الحياة، لأن حركة الإنسان مبدأها نفسه وذاته ومعرفة مبدأ أية حركة ضرورية لمعرفة طبيعة هذه الحركة وغايتها. ولهذا نجد جميع المدارس العلمية بمختلف توجهاتها تتولي أهمية بالغة لدراسة حقيقة الإنسان. ولكن هذه الدراسات تختلف باختلاف منهجها وغايتها. فكل مدرسة مبنية على نظريات علمية ما، و هذا ما يجعل النتائج تختلف أيضا اختلافا كبيرا في بعض الأحيان. وسنركز في هذا البحث على مدرستين مختلفتين نوعا و كيفا، لأنهما تمثلان كلا من الوضع السائد و هو المتمثل في علم النفس الحديث بمختلف أطيافه)السلوكي، النفساني التحليلي، المعرفي والوجودي)، ومن جهة أخرى على الحل المطلوب أو الحل البديل الذي تعرضه المدرسة الإسلامية و المتمثل في المعرفة القرآنية للإنسان (مطهري ٢٠١٠أ).

والبحث حول ماهية الإنسان من أصعب الأبحاث وأعقدها على الإطلاق. فنجد أن الكثير من الأبحاث العلمية تدور حول الطبيعيات والفلكيات والرياضيات وغيرها من البحوث التجريبية التي ملأت خزائن الجامعات والمخابر، حيث تتناول أدق الدقائق وأغمضها، إلا أن البحوث حول الإنسان لا تعدو أن تكون تدور حول القشر من الإنسان وبشريته وأغفلت أهم جزء منه، و هو حقيقته الإنسانية (مطهري ٢٠١٠ب).

وتدور كل هذه البحوث حول محورين أساسيين: الأول هو طبيعة الإنسان الموجود و مكوناته من غرائز و أميال وصفات و فطريات. و هل إن الإنسان خير بالطبع أو شرير أم إن فيه مبدأي الخير

والشر معا؟ أما المحور الثاني فيدور حول غاية خلق الإنسان و هدفه و الكمال الذي يتجه نحوه في حركته الوجودية هذه. فالبحث إذا له شقان وبعدان: بعد انطولوجي وجودي و بعد أخلاقي غائي. ولا يمكن معرفة الغاية بدقة مالم تعرف المبادئ بدقة أيضا. وهذا ما يستلزم وقفة طويلة عند مثل هذه البحوث، لأنها تمثل محطات خطيرة ومصيرية في حياة الإنسان. لكننا كثيرا ما نتجاوزها أو نمر عليها مرور الكرام. و هذا ما يسبب الغفلة و الذهول عن أهم هدف خلق الإنسان من أجله، و هو معرفة نفسه.

أنواع معرفة الإنسان

إن هناك طرقا عديدة لمعرفة الإنسان، و هي ما يلي:

١. الطريق التجريبي.
٢. الطريق الفلسفي.
٣. الطريق الديني.

في الطريق التجريبي، تتناول الاختصاصات المختلفة جانبا من جوانب الإنسان بالدراسة مستعينة في ذلك بالطرق التجريبية التي تعمد على المعاينة والملاحظة الحسية لسلوك الإنسان في مختلف أطواره و اختلاف بيئته المحيطة به. و من هذه الاختصاصات علم الاجتماع، السياسة، الاقتصاد، التربية، علم الاجتماع الديني و.... فتتظافر هذه الاختصاصات العلمية لدراسة الإنسان ومشاكله ومحاولة إيجاد الحلول المناسبة لها (مطهري ٢٠١٢).

وهناك أيضا الطريق الفلسفي لدراسة الإنسان ومعرفته و هو طريق أكثر شمولا وجامعية من الأول، لأنه لا يقتصر على الطرق التجريبية فحسب، بل تتعداها إلى الطرق العقلية. و بذلك فهي تفتح آفاقا واسعة لمعرفة الإنسان معرفة أدق. ومع ذلك فهي لا تنتهي بنا إلى معرفة الله سبحانه و تعالى الذي هو مبدأ كل شيء ومنتهاه. فكل معرفة لا تنتهي بصاحبها إلى معرفة المبدأ الأول فهي معرفة ناقصة (الطباطبائي ١٩٩٧د).

و لهذا فإن المعرفة الدينية و التي على معرفة الله كغاية قصوى ومعرفة الإنسان كمقدمة لهذه المعرفة تعد المعرفة الأتم والأكمل و أن صاحبها ينال الكمال الحقيقي الذي يبحث عنه بفطرته، لا ذلك الكمال الموهوم الذي عادة ما يضل بسببه كثير من الناس (يزدي ٦٠٠٢).

مصاديق الكمال عند مختلف المدارس

يعبر عن الكمال في المدارس التجريبية بتعبيرات مختلفة، مثلا: الحاجة إلى التقدم و الرقي، الازدهار، البحث عن الوضع الأفضل، الحاجة إلى التعالي و.... و كما نعلم أن الإنسان الكامل عبر التاريخ كان مورد اهتمام و احترام لجميع الناس، كان البحث النفسي خلال القرن العشرين يدور حول تشخيص الأمراض النفسية و كيفية معالجتها (عباس ٢٠١٥). لكنه الآن يدور حول البحث عن ما يسبب سلامة

الروح و كل المؤثرات الإيجابية التي تساعد على وضع سليم للنفس. فعلم النفس الحديث إذاً يبحث عن الكمال المطلوب الذي يعد غاية لحركة الإنسان من القوة إلى الفعل.

في القرآن الكريم نجد أن كمال الإنسان و وصوله إلى الغاية التي خلق من أجلها من أهم المواضيع التي يتناولها هذا الكتاب العزيز. فهو يبين لنا كيف يمكن للإنسان أن يحقق إمكاناته التي وهبها الله إياه ليوصلها من القوة إلى الفعل كما يعبر عن هذه الغايات بأولياء الله (يونس:٢٦)، أصفياء الله (آل عمران:٣٣) و الأبرار (الانفطار:١٣) (الطباطبائي ١٩٩٧أ).

فهدف خلق الإنسان في نظر القرآن الكريم هو ازدهار فطرته وفعلية إمكاناته وقواه ليصل إلى الكمال و المطلوب، و هو خلافة الله في الأرض. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِمَاءَ وَ نَحْنُ نُسَبحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠) (الطباطبائي ١٩٩٧ب).

فإذا دققنا في القرآن الكريم و اقتفينا آثار الآيات التي يفسر بعضها بعضا وجدناها تتكلم عن هذا السر الغامض الذي يريد القرآن الكريم أن يفتح لنا مغاليقه ليقودنا إلى حقيقة يكاد الإنسان نفسه لا يصدقها، و هي خلافة لله سبحانه. فالكثير منا لا يتصور أن هدف الخلقة هو الوصول إلى هذه الخلافة و أن ما دون ذلك يعتبر فشلا في حياة الإنسان، لأنه لم يخلق لذلك أو لأنه يملك من رأس المال ما يجعله خليفة. فإذا لم يصر خليفة لم يربح شيئا ما، بل ضاع رأس ماله كله.

فكيف للإنسان أن يصل إلى هذا الكمال القرآني؟ فيبين لنا القرآن ذلك: أنه يحتاج إلى أسوة حسنة، و هو الإنسان الكامل الذي قد حقق هذا الطريق و بلغ هذا الكمال، و الآخر هو أن تكون له شريعة كاملة باتباعها يمكن له تحقيق هذه الغاية. و في كل ذلك لابد له أن يتوسل بحقيقة ذاتية فيه و هي عين فقره واحتياجه إلى الله تعالى، وأن مصدر كل الكمالات هو الحق سبحانه و تعالى. ﴿يَا أَيهَّا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر:١٥) (يزدي ٢٠٠٦).

مدارس علم النفس الحديث و تعريف الإنسان

يعتبر علم النفس الحديث علما مستقلا عن الفلسفة حيث أنه نشأ في المائة العام الأخيرة فقط نتيجة موجة العلوم التجريبية، ولا نعني بعلم النفس هنا علم النفس الفلسفي الذي يعد قدمه هو قدم الفلسفة نفسها. فهذا علم شريف و مفيد يتناول الإنسان بأبعاده المختلفة والمعقدة. أما علم النفس الحديث فلا يتناول النفس الإنسانية إلا من جانبها التجريبي، و هذا لا يمثل إلا جزءا واحدا و جانبا واحدا من جوانب عدة لهذا الموجود العظيم.

إن مدارس علم النفس الحديث كثيرة و ليس هذا مجال إيرادها كلها، و البحث عنها يتطلب مجالا أوسع. و ربما يمكن الإشارة إجمالا إلى اتجاهات عدة في علم النفس الحديث تحاول أن تعرف الإنسان حسب معتقداتها و أسسها الفكرية، و نذكر أهمها ما يلي:

١. المدرسة السلوكية (Behaviorism): ملاحظة سلوك الإنسان بالتجربة الحسية يعد الطريق الوحيد لمعرفة واقع الإنسان، ولا اعتبار لأي حقيقة ميتافيزيقية أو ذهنية في الدراسات الموضوعية للإنسان لأنها في نظرهم ليست فقط غير قابلة للمشاهدة الحسية، بل لا اعتبار لها أصلا (Stephenson 1953). في نظر السلوكية، إن الإنسان لا هو موجود خير ولا شرير بالطبع، بل هو موجود طبيعي له استعداد أي سلوك كان بالقوة. فهو عند ولادته صفحة بيضاء لا كتابة عليها. وهم ينفون الإرادة المطلقة للإنسان، حيث أنه لا يمكن أن يتحكم في نفسه من خلال إرادته الداخلية، بل هو محكوم بواسطة القوى الخارجية التي تعين عاداته وسلوكه بشكل كبير ولا تعين الإرادة الداخلية له إلا مقدارا صغيرا من هذا الاختيار. ولهذا فمن وجهة نظرهم، إن العادات و النظرة الكونية للإنسان واستعداده ليس وليدا لطبيعته و ذاته، و لكنه ينشأ نتيجة محيطه وتعامله مع الآخرين(Stephenson 1953).

٢. مدرسة التحليل النفسي (Psychoanalytic): رائد هذه المدرسة هو فرويد و يعتقد بأن الإنسان واقع تحت تأثير عقده الجنسية الموجودة في اللاشعور، و عند ما يتوجه الإنسان و يخرج من حالة اللاتوجه و اللاشعور أو عند ما يحلل هذه العقد و يخرجها من حالة الكون إلى البروز، حينها يمكن له الخروج من سلطتها و التخلص من تبعاتها. فالإنسان في هذه المدرسة أيضا تابع و مجبور لنفسه ومحيطه الاجتماعي، وما لم يحلل هذا الوضع و يخرجه إلى دائرة الوعي لا يمكن له التعامل معه بشكل إيجابي (Russel 1982). في نظر فرويد، لا يمكن لإنسان أن يتحكم بحرية في اختياره لأنه محكوم بواسطة الأفكار و المحفوظات الموجودة في اللاوعي، وهذا المستوى من الشعور لا يمكن التحكم فيه، ولا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق نصف الوعي لا الوعي الكامل. يعيد فرويد كل الأميال و الغرائز الإنسانية إلى الغريزة الجنسية و أنها أصل كل هذه الأميال و الرغبات الإنسانية. و خلاصة القول أن فرويد اختزل القوى الذهنية و العقلية للإنسان في الغريزة، و هذا ما جعل مدرسته تبوء بالفشل. و لكن مدرسته كان لها الفضل في نشأة تيار جديد عقلاني يحاول أن يفسر الإنسان من خلال قوة داخلية عقلية طالبة للكمال، و هذا الكمال ليس محكوما بالأميال الغريزية صرفا (Stephenson 1953).

٣. المدرسة الوجودية: يعتبر هايدجر وسارتر من روادها. فهذه المدرسة، خلافا لبقية المدارس، تعطي الإنسان الحرية المطلقة في تعيين مصيره و أنه المسؤول الوحيد عن تعيين كماله الأخير (هايدجر ١٩٩٩).

و كما نلاحظ، فإن هذا المدارس تتراوح من النقيض إلى النقيض، و من الجبر المطلق إلى الاختيار المطلق. و هذا ما لا يتناسب وما يشاهده الإنسان بوجدانه في نفسه، حيث أننا نعلم وجدانا أننا مختارون، لكن في الوقت نفسه نعلم أيضا أن اختيارنا أحيانا محكوم بأشياء خارجة عن إرادتنا. ونرى أن المشكلة الأساسية في عدم توفيق هذه المدارس هي اختزال الإنسان هذا المخلوق البالغ في التعقيد إلى أبعاد محدودة لا تمثل حقيقته الكاملة.

و تعرف مدارس علم النفس الحديث كمال الإنسان بتعريفات مختلفة و أحيانا متباينة وفقا لنظرتها الكونية التي عليها تبني نظرياتها، و ليس المجال هنا لبحث هذه التعريفات. و لكننا نقول إن معظم هذه النظريات تعد اختزالا و تصغيرا لحقيقة الإنسان، ولا يمكن لأحد أن يعرب لنا عن حقيقة الإنسان إلا من خلقه، فهو أعلم بخفاياه و ثناياه. و لهذا فسنخصص البحث هنا حول حقيقة كمال الإنسان من وجهة القرآن الكريم.

حقيقة الإنسان في القرآن الكريم

للإنسان أبعاد و استعدادات مختلفة من وجهة نظر القرآن الكريم. فطرة الإنسان يمكن أن تتجه به صعودا نحو الكمال المطلق كما يمكن أن تنزل به إلى أسفل سافلين. للإنسان نفس لوامة تقوده نحو الخير والفضائل و نفس أمارة تسوقه إلى السقوط و الشر و الرذائل:

﴿لا أقسم بالنفس اللوامة﴾ (القيامة:٢).
﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾ (يوسف:٥٣).

للإنسان في بعده الإيجابي فطرة إلهية وطبيعة تطلب الكمال الإلهي:

﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ (الروم:٣٠).

في هذا المقام تطلب النفس الكمال الإلهي و تسير لتصل إلى مقام النفس المطمئنة:

﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي و ادخلي جنتي﴾ (الفجر:٢٧-٣٠).

أما في بعده السلبي فله الاستعداد ليصير إلى صفات ذميمة عدة:

﴿و كان الإنسان قتورا﴾ (الإسراء:١٠٠). فهو إنسان بخيل.

﴿و كان الإنسان أكثر شيء جدلا﴾ (الكهف:٥٤)؛ ﴿و كان الإنسان عجولا﴾ (الإسراء:١١). الإنسان موجود مجادل وعجول.

﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ (العاديات:٦). فهو كافر غير شاكر للنعم أي ينكر الجميل.

إذن فهذه الطبيعة السلبية يمكن أن تهوي بالإنسان إلى أسفل سافلين. ﴿ثم رددناه أسفل سافلين، إلا اللذين آمنوا و عملوا الصالحات﴾ (التين:٥).

مباني معرفة الإنسان في القرآن الكريم

١. الإنسان خليفة الله: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ (البقرة:٣٠)؛ ﴿هو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ (الأنعام:١٦٥).

٢. الإرادة و الاختيار: ﴿قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (الكهف:٢٩)؛ ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد:١١).

٣. الإيمان و فطرة التوحيد: ﴿وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَني آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِيَّتَهُمْ و أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يومَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِين﴾ (الأعراف:١٧٢).

٤. الوعي و الفكر: ﴿خلق الإنسان علمه البيان﴾ (الرحمن:٣-٤).

٥. السلوك و العمل سبب لسعادة الإنسان أو شقاءه: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ (الزلزال:٧-٨).

٦. الإنسان موجود ذو بعدين: ﴿الَّذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ و بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ، ثمَّ جَعَلَ نَسْلَه مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نفَخَ فيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ و الْأَبْصارَ و الْأَفْئِدَةَ قَليلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة:٧-٩).

الإنسان موجود طالب للكمال ذاتا كما أشرنا في الآية الكريمة من سورة فاطر ١١. فالإنسان ذات حقيقته الفقر، و لا أنه ذات لها الفقر. فالفرق بينهما كبير. فالذات التي لها الفقر قضية موضوعها الذات الموجودة، ثم محمولها الفقر. فالفقر عارض عليها، فيمكن لها أن تستغني حينا ما. أما الذات التي حقيقتها الفقر فقوامها بالفقر، ولا وجود لها سوى الفقر، و بالتالي فهي ذاتا طالبة للكمال من الذات الإلهية التي حقيقتها الغنى.

فالله سبحانه و تعالى منح الإنسان من النعم و أودع فيه من الكنوز و جعل له طريقا يسلكه ليفعل هذه المستودعات لتصير كمالات بالفعل يمكن له بواسطتها أن يشبه خالقه و يتصرف بواسطتها في هذا الكون كله الذي سخره الله لخدمته. ولكن جعل له شرطا في ذلك و هو شكر هذه النعم. ﴿وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابي لَشَديد﴾ (إبراهيم:٧). و لهذا أمره باستخدام الحلال و طلب الحال و استعمال النعمة كما أمره بذلك. فهذا هو مفهوم شكر النعمة في القرآن الكريم. ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُون﴾ (البقرة:١٧٢). وكذلك عرف القرآن الكريم القرب الإلهي بأنه كمال يطلبه الإنسان ولا يقتصر على الصالحين بل حتى المشركين منهم يطلبون هذا الكمال. ﴿أَلا لِلَّهِ الدِينُ الْخالِصُ و الَّذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَينَ هُمْ في ما هُمْ فيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يهَدي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّار﴾ (الزمر:٣). كما يذكر ذلك في سورة الكهف و أن طلب طريق الرشد هو في القرب منه. ﴿إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَ اذكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسيتَ وَ قُلْ عَسى أَنْ يهَدِيَنِ رَبي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَدا﴾ (الكهف:٢٤). وفي وصفه لسيدنا عيس عليه السلام وأنه من المقربين: ﴿إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبشرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسيحُ عيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجيهاً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبين﴾ (آل عمران:٤٥).

و كثير من الآيات أيضا تشير إلى هذا المعنى و هذا الكمال. وهناك معنى آخر من الكمال مشابه للقرب تشير إليه الآيات، و هو لقاء الله. يصف القرآن الكريم الإنسان بالمسافر و السالك إلى الله حيث ينتهي سيره لا محالة بلقاء الله. ﴿يا أَيُّها الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِكَ كَدْحاً فَمُلاقيهِ﴾ (الانشقاق:٦). كما عرف لنا القرآن الكريم الطريق للقاء الله حيث يقول الله تعالى في سورة الكهف: ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرجُوا لِقاءَ رَبِهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِهِ أَحَدا﴾ (الكهف:١١٠).

نظريات في تعريف الإنسان الكامل

هناك نظريات في تعريف الإنسان الكامل قد بحث عنها العلماء و المفكرون (مطهري ٢٠١٠أ)، و أهمها ما يلي:

١. مدرسة العقليين: ترى هذه المدرسة أن الإنسان الكامل هو ذلك الحكيم أو الفيلسوف الذي نال الحكمة بقسميها النظري والعملي. والمقصود بالحكمة النظرية هي إدراك الكليات التي تحكم الوجود عن طريق الاستدلال، و هي تختلف عن العلم الذي يتعلق بتفاصيل الوجود وجزئياته. أما الحكمة العملية فهي هيمنة الإنسان على غرائزه و طاقاته.

٢. مدرسة العشق (التصوف و العرفان): وهي ترى أن الإنسان لا يصل إلى كماله بالعقل و إنما بحبه لله. فهذا الحب يجعله يرتقي معنوياً و يفنى في الله، و يكون حينئذٍ إنساناً كاملا.

٣. مدرسة القوة: و هي ترى أن الإنسان الكامل هو ذلك الإنسان الذي يمتلك القوة بغض النظر عن معناها. و هذه الفكرة نشأت في الفكر اليوناني بين السفسطائيين حيث كانوا يرون أن القوة دليل على الحق، و أن الضعف دليل على الباطل، و على الإنسان أن يسعى لامتلاك القوة من دون حد. و تبعهم في ذلك الفيلسوف الألماني، نتشيه، حيث كان يقول بأن الدين هو من اختراع الضعفاء إذ أنه ينشر مبادئ التسامح والرحمة من أجل الحد من قوة الأقوياء. ويرى أن الناس طبقتان: الأقوياء و هم القلة، وطبقة الضعفاء و هم الأكثرية، وعلى طبقة الضعفاء أن يعملوا كالعبيد لخدمة طبقة الأقوياء. و يجب أن تخلو طبقة الأقوياء من أخلاق الضعفاء كالمحبة والإحسان إلى الآخرين. فإذا تخلصت البشرية من أخلاق الضعفاء، يظهر من بين الأقوياء الإنسان الأسمى وهو الأقوى (السوبرمان)، و هو الإنسان الكامل، و هو الذي يحقق رغباته ويتمتع بحياته. فإذا وقف أحد بينه و بين تحقيق رغباته قضى عليه من دون أي خوف من الأخطار. ومن الخطأ القول بأن طبقة الأقوياء تعمل على حماية طبقة الضعفاء. فإن الغرض من الدولة هو وصول الأقوياء إلى السلطة. أما الضعفاء فحكمهم حكم البهائم التي تتحمل الأعباء و الأثقال لخدمة الأقوياء. كما أن نتشيه لا يرى حق المساواة بين الرجل و المرأة إذ أن الرجل أسمى منها و هي خلقت لخدمته.

كما أن فكرة الإنسان الأقوى تستند على نظرية تنازع الأحياء من أجل البقاء كما جاء في فلسفة داروين. فأي كائنين حيين إذا كان بينهما تعاون فلأنهما يتعاونان ضد عدو مشترك من أجل البقاء، ولو زال هذا العدو، فإنهما يتنازعان فيما بينهما، ويبقى الأقوى.

٤. مدرسة الضعف: ترى هذه المدرسة أن الإنسان الكامل هو الذي لا يمتلك القوة، لأن الإنسان الذي يمتلك القوة سيعتدي على الآخرين.

٥. مدرسة معرفة النفس و حب الآخرين في الفلسفة الهندية: ترى هذه المدرسة أن الإنسان الكامل هو الذي يعرف نفسه و يسيطر عليها، ومن ثم يوصل الخير والمعونة للآخرين بدافع حبهم.

٦. مدرسة اللاطبقية: بما أن الإنسان لا يخلو من عيب في أي طبقة ينتمي إليها، فإن الإنسان الكامل هو الذي لا ينتمي إلى أي طبقة و يعيش متساويا مع الآخرين.

٧. مدرسة الحرية و الوعي الاجتماعي: ترى هذه المدرسة أن الإنسان الكامل هو الحر الواعي المسؤول.

٨. مدرسة اللذة و الاستمتاع: هي قريبة من مدرسة القوة، وترى بأنه كلما استمتع الإنسان بخيرات الطبيعة أكثر كان أقرب من الإنسان الكامل. وترى بأن العلم لا فائدة فيه بحد ذاته إلا إذا كان وسيلة للإنسان في السيطرة على خيرات الطبيعية والاستماع بها.

الطريق إلى الكمال الحقيقي

إذا نظرنا إلى فلسفة الخلق ثم إلى فلسفة بعث الأنبياء، وجدنا أن الطريق إلى الكمال يمر عبر طريقين مختلفين: طريق الآفاق و طريق الأنفس: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبكَ أَنَّهُ عَلى كل شَيْءٍ شَهيدٌ﴾ (فصلت:٣١). وطريق الأنفس أسرع من طريق الآفاق و يتميز بكونه حضوريا ولا مجال للخطأ فيه. أما طريق الآفاق فهو حصولي و مليء بالوسائط. لذلك فهو صعب و طويل. ولكنه مطلوب أيضا، و خاصة في بداية الطريق (الطباطبائي ١٩٩٧ج). فكل الأنبياء جاؤوا ليزيلوا الحجاب عن الفطرة و يأخذوا بيد الإنسان إلى معرفة نفسه، التي هي طريق لمعرفة ربه: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» (الطباطبائي ٢٠١١).

١. حركة الإنسان تبدأ من الطبيعة الحاملة لاستعداداته الإلهية ليعود من حيث جاء: ﴿إِنَّ إِلى رَبكَ الرُّجْعى﴾ (العلق:٨)؛ ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ (البقرة:١٥٦). إذا فهذه الحركة تبدأ من الله و إلى الله.

٢. المتحرك و الطريق واحد، و هو نفس الإنسان. فالسير في النفس بالنفس: ﴿يا أَيهُّا الَّذينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَميعاً فَيُنَبئُكُمْ بِما كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:١٠٥). في هذه الآية، يؤكد القرآن الكريم على لزوم النفس حتى تنتهي بصاحبها إلى الغاية وهي الله تعالى. فمعرفة النفس هي معرفة الحق، لأن في المعرفة الحضورية لا توجد ثنائية بين العالم و المعلوم (الطباطبائي ٢٠١١). ومن جهة أخرى، فإن الإنسان إن لم يسلك هذا الطريق فسيكون مآله الخسران، و هذا هو التحذير الذي كثيرا ما يتكرر في القرآن الكريم، وهو أن يسلك الإنسان طريقا خلاف الفطرة التي فطره الله عليها: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبيرٌ بِما تَعْمَلُونَ ولا تَكُونُوا كَالَّذينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾ (الحشر:١٨). إذن سر فلاح الإنسان هو معرفته نفسه ومعرفته نفسه هو معرفة أن حقيقتها الافتقار إلى الله. فإذا عرف ذلك لجأ إلى الغني المطلق ليستفيض منه ما قدر له وفقا لطاقته واستعداده.

الخاتمة

بناءً على استعراض لمفهوم الكمال الإنساني من منظورات متعددة، يمكن استنتاج أن تحقيق الكمال الحقيقي يتضمن فهمًا عميقًا للذات وعلاقتها بالله. يتجلى هذا المفهوم من خلال طريقين رئيسيين: الأول، استكشاف الذات للكشف عن جوهر وهدف الوجود، والثاني، الملاحظة للكون لتعميق فهمنا لعملية الخلق والخالق .قدم الفلاسفة والمفكرون مجموعة متنوعة من النظريات حول تحقيق الكمال، بدءًا من التركيز على الحكمة والفلسفة، إلى الحب والتقوى. وفي هذا السياق، لعبت النظريات التي تسلط الضوء على القوة والضعف، والحرية والوعي الاجتماعي، واللذة والسعادة دورًا في هذا الفهم .من وجهة نظر الإسلام، يتم تحقيق كمال الإنسان من خلال فهم عميق للذات، مع الإدراك أن جوهر الإنسان هو الاعتماد المطلق على الله. لذا، الخطوة الأولى نحو الكمال الحقيقي هي فهم والاعتراف بالضعف والاحتياجات الذاتية، ثم سعي الإنسان للتقرب من الخالق بوعي وتفانٍ .وفي هذا السياق، من المهم أن نتذكر أن تحقيق الكمال لا يتماشى دائمًا مع المفهوم الدنيوي الأكثر قوة أو متعة، بل يتعلق أكثر بالوعي والتأمل في جوهر وجود الإنسان وعلاقته بالله.

قائمة المصادر و المراجع

الطباطبائي, محمد حسين. ١٩٩٧أ .*a*تفسير الميزان .جلد ٠١ .قم: مؤسسة النشر الإسلامي.

——— .١٩٩٧ب .تفسير الميزان .جلد ١ .قم: مؤسسة النشر الإسلامي.

——— .١٩٩٧ج .تفسير الميزان .جلد ١٧ .قم: مؤسسة النشر الإسلامي.

——— .١٩٩٧د .نهاية الحكمة. قم: مؤسسة النشر الإسلامي.

——— .٢٠١١ .تفسير الميزان .جلد ٦ .قم: مؤسسة النشر الإسلامي.

عباس, نفيسي. ٢٠١٥. روان‌شناسی تکاملی. تهران: انتشارات رشد.

مطهري, مرتضى. ٢٠١٠أ .انسان كامل. طهران: انتشارات صدرا.

———— .٢٠١٠ب .فلسفة انسان. طهران: انتشارات صدرا.

——— .٢٠١٢ .فلسفة الأخلاق. طهران: انتشارات صدرا.

هايدجر, مارتن. ١٩٩٩. الكينونة والزمان. بيروت: دار الفكر العربي.

يزدي, محمد تقي مصباح. ٢٠٠٦. معرفة الله. قم: مؤسسه آموزشي و پژوهشي امام خميني.

REFERENCES

Russell, Bertrand. 1982. *The Philosophy of Psychology*. London: Penguin Books.

William Stephenson. 1953. *The Study of Behavior: Q-Technique and Its Methodology*. Chicago: University of Chicago Press.